•••••

مَعَالِمُ الطَّرِيقِ إِلَى الْإِفَادَةِ مِنْ «عِلْمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ»

هَذَا الْعِلْمُ لَيْسَ كَمِثْلِ سَائِرِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. هُوَ عِلْمٌ تَرْبَوِيٌّ إِصْلَاحِيٌّ، مُهِمَّتُهُ الرَّئِيسَةُ إِصْلَاحُ مَنْ يَتَعَلَّمُهُ لِيَكُونَ ذَا قُدْرَةٍ وَمَهَارَةٍ فِي الْفَهْمِ عَنِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَعَنْ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ – فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَلِيَكُونَ – أَيْضًا – ذَا قُدْرَةٍ عَلَى أَنْ يُبِينَ عَمَّا فِي فُؤَادِهِ مِنَ الْمَعَانِي؛ جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا، بِأُسْلُوبٍ يَتَّسِمُ بِالدِّقَّةِ وَالْعُذُوبَةِ، فَيَكُونُ فِيهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْمُتْعَةِ النَّفْسِيَّةِ، مَا يُمَكِّنُ مَعَانِيَكَ فِي فُؤَادِ مَنْ يُصْغِي إِلَيْكَ، وَتِلْكَ طِلْبَةٌ وَبُغْيَةٌ عَلِيَّةٌ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ.

وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ لَكَ إِذَا أَنْتَ اكْتَفَيْتَ بِحِفْظِ الْقَوَاعِدِ وَالشَّوَاهِدِ وَمَنَاطِ الِاسْتِشْهَادِ، وَوَعَيْتَ التَّعَارِيفَ وَالْأَقَاسِيمَ، وَمَقُولَاتِ الْعُلَمَاءِ، وَمَا بَيْنَهُمْ مِنْ حِوَارٍ وَنِقَاشٍ. كُلُّ ذَلِكَ – عَلَى جَلَالِهِ، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ، وَصُعُوبَةِ تَحْصِيلِهِ – لَيْسَ هُوَ الْمَأَمَّ الرَّئِيسَ الْأَمْجَدَ الْأَحْمَدَ.

مِنْ بَعْدِ أَنْ تَفْرَغَ مِنْ تَحْصِيلِ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ قَبْلُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِلَ هَذَا الزَّادَ لِتُقِيمَ بِهِ فِي رِيَاضِ الْكَلِمَةِ الْإِنْسَانِ: الْإِبْدَاعِ الْأَدَبِيِّ؛ شِعْرًا وَنَثْرًا أَدَبِيًّا فِي عُصُورِ الْإِبْدَاعِ كَافَّةً، وَلَا سِيَّمَا عُصُورُ الْإِبْدَاعِ الذَّهَبِيَّةُ فِي الْقُرُونِ الْخَمْسَةِ الْأُولَى، لِتَقْرَأَ هَذَا الَّذِي حَصَّلْتَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالشَّوَاهِدِ وَمَقَالَاتِ الْعُلَمَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي مَا أَبْدَعَهُ أَهْلُ الْبَيَانِ الْعَالِي؛ شِعْرًا وَنَثْرًا.

مِنْ بَعْدِ أَنْ تَفْرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْبَابِ قِرَاءَةً احْتِرَافِيَّةً مُحِيطَةً مُحْكَمَةً عَلَيْكَ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ، وَلَا سِيَّمَا الْمُعَلَّقَاتُ الْعَشْرُ، فَتَقْرَأَ الْبَابَ فِي ضَوءِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، لَا أَنْ تَقْرَأَ الْقَصِيدَةَ فِي ضَوءِ الْبَابِ.

لِتَحْذَرْ أَنْ تَجْعَلَ قَوَاعِدَ الْبَابِ سُلْطَانًا عَلَى الْقَصِيدَةِ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الإِفْكُ المُبِينُ وَالْبَلاَءُ الْعَظِيمُ. «الشُّعَرَاءُ أُمَرَاءُ الْبَيَانِ» كَمَا قَالَهَا الْعَلَّامَةُ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَمْرو بْنِ تَمِيمٍ الْفَرَاهِيدِيُّ (١٠٠ – ١٧٠هـ).

الصِّرَاطُ الْقَوِيمُ أَنْ تَقْرَأَ قَوَاعِدَ «عِلْمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ» فِي ضَوءِ قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ الذَّهَبِيِّ؛ فَالشِّعْرُ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْقَاعِدَةَ نَضَارَتَهَا، وَيَمْنَحُهَا التَّمَكُّنَ مِنْ فُؤَادِكَ، ثُمَّ يَمْنَحُهَا الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ تتكَاثَرَ المَعْرِفَةُ الْبَيَانِيَّةُ فِيهِ، فَيَكُونُ لَكَ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْكَ، فَتُذْكَرَ يَومًا فِي دِيوَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ وتُشْكَرَ، وَهَذَا حَقُّ نَفْسِكِ عَلَيْكَ، فَلَا تَبْخَسْ نَفْسَكَ حَقَّهَا: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» (سُنَنُ التِّرْمِذِيُّ: الزُّهْدُ. رقم: ٢٥٩٦)، فَإِذَا تَمَكَّنْتَ مِنْ ذَلِكَ ارْتَقَيْتَ إِلَى الَّتِي هِيَ أَجَلُّ: عَمَدْتَ إِلَى قَلَمِكَ فَصُغْتَ مَقَالًا أَدَبِيًّا فِي مَوضُوعٍ شَرِيفٍ، تُقِيمُ فِيهِ قَوَاعِدَ هَذَا الْبَابِ، بِحَيْثُ يَسْتَحِيلُ مَقَالُكَ الْأَدَبِيُّ هَذَا إِلَى قِطْعَةٍ بَيَانِيَّةٍ تَكْتَنِزُ أَسَالِيبَ هَذَا الْبَابِ، مَصُوغَةً صِيَاغَةً عَلِيَّةِ الْقَدْرِ، غَنِيَّةَ الثَّمَرِ، سَخِيَّةَ الْعَطَاءِ، فَيَكُونُ لِهَذَا الْبَابِ ثَلَاثُ حَيَوَاتٍ:

حَيَاةٌ فِي كِتَابِ «الْإِيضَاحِ» الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، وَحَيَاةٌ فِي قَصِيدَةِ الشِّعْرِ الَّتِي تَفَرَّسْتَهَا وَتَذَوَّقْتَهَا وَاسْتَطْعَمْتَهَا، ثُمَّ حَيَاةٌ فِي مَا أَبْدَعْتَهُ مِنْ مَقَالٍ أَدَبِيٍّ هُوَ ذَوْبُ نَفْسِكِ، وَمُسْتَجْمَعُ مَعَارِفِكِ وَمَهَارَاتِكِ وَخِبْرَاتِكِ.

إِذَا مَا تَمَّ لَكَ ذَلِكَ فَاحْمِلْ هَذِهِ المَهَارَاتِ وَالْخِبْرَاتِ وَالْأَدَوَاتِ، وَاعْمَدْ إِلَى رِيَاضِ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ، وَاقْرَأْ هَذَا الْبَابَ الَّذِي أَنْتَ بِصَدَدِهِ فِي أَحَادِيثَ مِنْ بَيَانِ النُّبُوَّةِ، مُسْتَحْضِرًا جَلَالَ وَجَمَالَ قَائِلِ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ –؛ فَهَذَا الْاسْتِحْضَارُ مُعِينٌ لَكَ عَلَى أَنْ تَرَى مِنْ الدَّقَائِقِ وَالْأَسْرَارِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْإِيمَانِيَّةِ مَا لَا تُحَصِّلُهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ بَيَانِ الْبَشَرِ.

وَإِذَا مَا تَمَّ لَكَ ذَلِكَ فَاعْمَدْ إِلَى قِرَاءَةِ الْبَابِ فِي سُورَةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِرَاءَةَ اسْتِبْصَارٍ مُتَدَبِّرٍ، وَاسْتَجْمِعْ مِنْ قِرَاءَتِكَ هَذِهِ فُيُوضًا مِنَ النُّورِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّشَوُّفِ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّكَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

إِذَا مَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ أَبْوَابِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ فَقَدْ سَعَيْتَ إِلَى حُسْنِ الْإِفَادَةِ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ، وَعَلِمْتَ حِينَذَاكَ عِلْمًا شُهُودِيًّا مُحَقَّقًا أَنَّ هَذَا العِلْمَ: «عِلْمَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ» لَيْسَ كَمِثْلِهِ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، فَجَمِيعُهَا خَدَمٌ لَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ مِفْتَاحُ الطَّرِيقِ إِلَى أَنْ تَكُونَ وَاحِدًا مِنْ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ فِقْهِ الْعَقِيدَةِ ، وَفِقْهِ الشَّرِيعَةِ، وَفِقْهِ الْإِحْسَانِ، وَحِينَذَاكَ تَجِدُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا؛ مِنْ مَتَاعٍ، وَمَنَاصِبَ، وَجَاهٍ زَائِفٍ = تَتَزَلَّفُ إِلَيْكَ، وَتَخْطُبُ وُدَّكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَفِرَّ مِنْهَا فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ، وَتَقُولَ لَهَا بِمِلْءِ فُؤَادِكِ الرَّشِيدِ وَلِسَانِكِ الصَّدُوقِ: «إِلَيْكِ عَنِّي. طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا طَلَاقًا لَا رَجْعَةَ فِيهِ».

إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ كَمَا قُلْتُ لَكَ، وَإِلَّا فَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَبْحَثَ لَكَ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِ الْعِلْمِ يُوَصِّلُكَ إِلَى الْجَنَّةِ.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَوَرَثَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأُمَّتِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أ.د/ محمود توفيق محمد سعد
أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر
وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف